ذا لحدُ حبر قد سما بكماله وقضى نضيلًا واهتدى بسيحه
بطريك انطون بن سحبري الذي حاز الثناء بفوزه وفتوحه
يبكيك ناظمه ابنك الفاني بدمشق قد حكى طوفانَ نوحَ بنوحه
يا خير حبر قلت تاريخًا به يا مؤمنون تبرَّكوا بضريحه

على ان الطائفة السريانيَّة ولاسيَّما المارديَّة لم تكن تتناسى اعمالهُ الرسوليَّة وتغضّ عن مبرَّاتهِ الوافرة ومشاريعهِ الخيريَّة. بل رامت ان تقيم الحفلات الشائقة تذكارًا لوفاتهِ مذ خمسين سنة وتخليدًا لذكرهِ الطيّب الذي لا تزال رياه فائحة في جميع الاقطاع. ولا جرم ان سجرنهُ واشجانهُ غدت كشجرةٍ باسقة اينعت ثمارًا شهيَّة لذَّت القلوب وانعشت النفوس. وكشفت عن الامة السريانيَّة برقع الكدر واليأس. وباتت تترقع من المراحم الالهيَّة ان ترجع الخراف الضالَّة المتسكعة في اليعقوبيَّة الى الحظيرة البطرسيَّة. اللهمَّ حقق الآمال وارفع شأن بيعتك المقدَّسة واجعل الرعيَّة واحدةً خاضعة لرئيس واحد بحولك اللهمَّ آمين

الغاية تقدّس الواسطة

انتقاد هذا المبدأ المنسوب الى اليسوعيين

للاب لويس شيخو اليسوعي

كتب الينا احد قرَّائنا من زحلة: كثيرًا ما قرأت في الجرائد المادية لليسوعيين ذكر هذه الكلمة « الغاية تقدس الواسطة » فلم ادرك قصدهم بها. فارجوكم ان تبيّنوا لنا في صفحات مجلَّتكم الغرَّاء ما معنى هذه الفقرة وهل هي حقيقةٌ من تعاليم اليسوعيين »

(الشرق) هي كلمةٌ دارت على السنة اعداء الرهبانيَّة اليسوعيَّة يزمّرون بها ويطبّلون فاذا نطقوا بها ظنُّوا انهم أخذوا ابناء القديس اغناطيوس وارجفوا فرائصهم لما تتضمَّنهُ من المخازي وتكتمهُ من المشاين الكافية لتسويد الوجوه وفضح الاعراض. وقد اخذ منذ بضع سنوات غوغاء كتبة الشرق يرددونهُ كالببغاء استنادًا الى اسافل كتبة الغرب. فوجدناهُ في بعض جرائد مصر والشام واميركة وكررتهُ آخرًا جريدة بولس افندي الكفوري وعجّة الكلمة وها نحن تلبيةً لدعوة

مراسلنا نخصُّ بعض صفحات المجلة اولًا لكشف القناع عن معنى الكلمة المزبورة وثانياً لبيان نسبتها زوراً الى الرهبان اليسوعيين

١ معنى الكلمة « الغاية تقدس الواسطة »

لو فتحت ايَّ كتابٍ شئتَ من كتب اللاهوت الجاري تعليمها عند الكليريكيك لوجدتَ في مقدماتها فصلًا واسعاً في « ادبيَّة الاعمال البشريَّة » يبحث فيه مؤلفوها عن مصادر ادبيَّة تلك الاعمال وينابيعها ويوردون في ذلك المبادئَ التي يقاس عليها صلاح العمل او شرُّه كالموضوع الصالح او الشرير الذي يأتيه الانسان وكالظروف التي تسبق العمل او ترافقهُ او تلحق به وكالغاية التي ينويها العامل في عمله وهلمَّ جرًّا

فمن البديهي ان هذه كلها تؤثر في الاعمال البشريَّة فتجعلها صالحةً او طالحة فاذا تمَّت شروطها عُدَّت صالحةً تستحقُّ الثواب لدى الديَّان وفاحص القلوب وان نقص شيءٌ منها تدنَّست إمَّا تماماً وإمَّا نوعاً على قدر ما يدخلها من النقص

هذه صدقةٌ يُحسن بها المرء الى فقير فانَّ الموضوع حسن والعمل من هذا القبيل جدير بالثناء ولكن اذا افترضنا انَّ المتصدق يصنع تلك الصدقة مرغوماً لأن الفقير تهدَّده بالقتل ان لم يحسن اليه فعل عن كراهيةٍ فيكون مظلوماً وانما يفوتهُ ثواب الصدقة. وهب انهُ تصدَّق من مالهِ بل حرِّيته ولكنَّهُ فعل ذلك ليس لوجه الله بل ليمدحهُ الناس على فعله او ليستعبد الفقير فهذه الغاية السيِّئة قبَّحت صنيعهُ وافقدتهُ اجرهُ

وقد يمكن ان تكون الغاية حسنةً لا يشوبها سوء نيَّة وانما الوسائط التي يتَّخذها الانسان لبلوغ تلك الغاية تكون غير صالحة فما القول عن العمل أيكون صالحاً او شريرًا؟ هاهوذا مثلًا رجل رقيق القلب يريد الاحسان الى فقير ولكن اذ ليس لديهِ مال يُحسن بهِ يختلسهُ من احد جيرانهِ ليعطيهُ الفقير أفيكون اتى بفعل حميد لحسن نيَّتهِ؟ او بكلام آخر: أتكون غايتهُ الصالحة برَّرت الواسطة التي اتَّخذها ليسدَّ عوز الفقير وهل قدَّست تلك الغاية سرقتهُ لمال جارهِ؟

لا غرو انَّ كلَّ صاحب عقل يلوم ذاك المُحسن ويؤثمهُ لاختلاسهِ مال قريبهِ اذ لا يجوز التوسُّل بالوسائل المستقبحة لينتج منها خيرٌ

وهذا الجواب الذي هو جواب كلّ ذي عقل سليم هو بالاحرى جواب كل رجل مستقيم ذي ذمّة وصاحب ضمير . ومَن سبرهُ بمعيار المبادئ الادبيّة وجدهُ موافقاً لها مطابقاً لتعاليمها لا يشذُّ عنها البتّة ولا يحيد ذرّةً . وعليهِ جرت كتب اللاهوت الادبي تثبت صحّتهُ عقلاً ونقلاً . فانَّ نصوص الكتب المقدّسة واقوال الآباء والمجامع كلها صوت واحد تقبّح اتخاذ الوسائط الشرّيرة لادراك الغايات الصالحة اعني انها تزيّف المبدأ السابق ذكرهُ « الغاية تقدّس الواسطة » وتثبت تجليًا على خلاف ذلك انَّ الغاية مهما كانت صالحة او مقدّسة لا تبرّر الواسطة ان كانت الواسطة غير صالحة . فمن اراد نوال غاية حسنة لا بُدَّ لهُ ان يتوسّل لادراكها بالوسائل الحسنة والّا تشوّهت تلك الغاية بقبح الوسيلة واصبح الفعل مذموماً كما تُذمّ الغاية الفاسدة مهما حسنت الوسائط المبلّغة اليها . فانَّ العمل لا يكون صالحاً الّا بتمام صلاحهِ من كل الوجوه وفقاً للمبدأ اللاهوتي: انَّ الخير يقوم بكل اسباب الصلاح والشرّ يحصل باي نقص كان bonum ex integra causa, malum ex quo-cumque defectu

٢ اليسوعيون ونبذ المبدأ السابق البرهم

من العجب العُجاب انَّ هذا المبدأ الذي يردُّهُ العقل الصائب ويمجُّهُ الذوق السليم ولا يرضى به احد من البشر تراهُ مألوفاً في كل كتابات الملحدين واعداء الكنيسة الى الرهبانيّة اليسوعيّة كأنهُ امر مقرَّر ثابت ثبوت الحقائق الاوليّة التي لا تحتاج الى برهان فيردّدونهُ في رواياتهم وخطبهم حتى جعلوهُ مرادفاً لاسم الجزويت

فيا تُرى كيف شاع هذا الامر دون ان يكون لهُ سندٌ في واقع الحال ؟ ان كان الدخان يدلُّ على وجود النار أفيمكن تبرير اليسوعيين عمّا يرويهِ عنهم الرأي العامّ ؟ فماذا نجيب من يتوقّفنا بهذا المبدأ ؟

جوابنا على ذلك سهل قريب فنقول : امّا ان يُنسَب هذا المبدأ الى اليسوعيين كمبدأ علميّ قرّروهُ في كتبهم وامّا ان يُعزَى اليهم كمبدأ عمليّ يجرون عليهِ في سيرتهم ومعاملاتهم . وكلاهما باطل

١ لم يقل يسوعيٌّ قطّ بهذا المبدإ الفاسد

نلاحظُ (اوّلًا) انَّ اعداء النصارى في اوّل الكنيسة كان يعيّرون المؤمنين بمثل

هذه التهمة حتى ان القديس بولس فنّدها برسالته الى اهل رومية بقوله (٣ : ٨) : « لماذا لا نعمل الشرّ لكي يصدر الخير كما يُفتَرى علينا فيزعم قومٌ أنّنا قلنا ذلك » فهذا الافتراء عينهُ بصورة اخرى قد حملهُ اعداء الكنيسة على الرهبان اليسوعيين أما رأوهم قاموا في وجههم للمدافعة عن تعاليم الكنيسة ؟

(ثانياً) ومن العجيب المستغرب انّ الكرسيّ الرسولي اثبت رسوم وقوانين الرهبانيّة اليسوعيّة بعد ان فحصها رجال افاضل فحصاً مدقّقاً فكيف يا تُرى سها عن كلمة كهذه لو وُجدت حقيقةً في جملة تعاليم اليسوعيين !

(ثالثاً) وهذه كتب اليسوعيين تُعَدّ بالألوف المؤلفة وهي في كلّ مكاتب العالم المتمدّن فهل يستطيع اعداء الرهبانيّة اليسوعيّة ان يدلّونا على كتاب واحد لرجل منهم صرّح بمثل هذ البدأ او لمّح اليهِ تلميحاً . فان فعلوا نشرنا اكتشافهم شاكرين ونحن نؤكد لهم انّ مساعيهم تذهب ادراج الرياح

(رابعاً) فان قيل انّ هذا مدوّن في تعاليمهم السرّيّة أجبناهم بقولنا انّ مكاتب اليسوعيين كلها واوراقهم السرّيّة وقعت جميعاً في ايدي الحكومات المختلفة يوم اغتصب عليهم الملوك بمساعي الجمعيّات الماسونيّة فنفرهم من بلادهم واضطرّوا الحبر الاعظم اقليمس الرابع عشر الى الغائهم فهل وجد احد في اضابير كتاباتهم ما يُشتَمُّ منهُ رائحة تعليم فاسد كهذا ؟ لا وايمُ الله

(خامساً) ولاسيما انّهُ اشتهر في رهبانيّة يسوع في كلّ زمن رجال عظام تناصر الخاصّة والعامّة في الثناء على علمهم وبرّهم وفضائلهم السامية بينهم القديسون الذين أدرجت الكنيسة اسماءهم في سجلّ اولياء الله والشهداء الذين ماتوا في سبيل الايمان بين الامم المسيحيّة والكتبة الاتقياء والوعّاظ الذين يدعون الى الصلاح وكأنهم يفضلون المنيّة على الدنيّة . فكيف لم يقم بين هؤلاء رجلٌ واحد صاحب ضمير يشهد على رؤوس الملإ بخبث تلك الرهبانيّة التي رضيت بالمبدإ القائل بانّ الغاية تبرّر الواسطة ؟

(سادساً) لا بل لو فتحتَ ايّ كتاب شئت من تصانيف الآباء اليسوعيين في اللاهوت الادبيّ وعددهم يُربي على بضع مئات لاكثرهم الشهرة الواسعة وتآليفهم طُبعت الطبعات المتواترة لتحقّقت انهم لا يشذّون عن كل المعلمين الكاثوليك في

تعليمهم المستقيم عن غاية الاعمال البشريَّة التي مهما كانت صالحةً تفسدها الوسائط المستقبحة. كفانا هنا ان ننقل بعض اسطر من لاهوت الاب غوري اليسوعي الذي عرَّبهُ السيد الجليل يوحنَّا حبيب منشئ جمعيَّة المرسلين اللبنانيين وطبعهُ في المطبعة العموميَّة في بيروت سنة ١٨٧٩ وتعليمهُ كتعليم اليسوعيين في كل اقطار العالم. قال الاب غوري (ج ١ ص ٤٣):

(عدد ٢٩) ١ً انَّ اصطناع الواسطة السيِّئة سيِّئ ولا يصحّ ان يقال انَّ اصطناع الواسطة الصالحة صالح فانَّ من أعرض عن شرب المسكرات بُخلاً منهُ لا يستحقُّ مدحاً ومن سرق مالاً حتى يتصدَّق به يرتكب اثماً

٢ً من يصطفي واسطةً جيدة لغاية جيدة يصنع بفعلهِ محمدتين حيث نواها كما انَّ من يصطفي واسطةً سيِّئة لغاية سيِّئة نحو ان يسرق مالاً حتى يسكر به يرتكب سيِّئتين

٣ً من يستعمل واسطة شرّيرة لغاية صالحة فلا يستفيد سوى شرّ الواسطة نحو ان يكذب لينجّي القريب من مكروه. وبالعكس فانَّ من استعمل واسطة صالحة لغاية شرّيرة لا يستفيد الَّا شرّ الغاية

فترى انَّ هذا التعليم وذاك المبدأ الفاسد المنسوب زوراً الى الرهبانيَّة اليسوعيَّة على طرفي نقيض

(سابعاً) وكان الرهبان اليسوعيُّون في المانية بعد أن رماهم بعض الكتبة البروتستانت بتهمة هذا القول ومنهم غاريك (Guericke) وهرتمان (Hart-mann) ومارتنسن (Martensen) وتيغلر (Ziegler) وغاس (Gass) ولوتهارد (Luthardt) تصدَّوا لهم وجاروا جائرةً قدرُها بضعة الوف من الفرنكات ان يستطيع اثبات تلك التهمة بالدليل ونشروا ذلك في الجرائد العمومية فظهرت بذلك خيبة المتَّهمين واقرَّ زعماء البروتستانت كالعلَّم ريتشل (Rietschel) والمبشِّر ريشرد ثيتبرخت (R. Weitbrecht) والدكتور پولسن (Paulsen) بانَّهم رغماً عن كل بحثهم في المكاتب لم يجدوا اثراً لذاك التعليم (١. وكذلك اليسوعيُّون الانكليز وضعوا مبلغاً من المال تعهَّدوا دفعهُ لمن اثبت صحَّة ذاك المدَّعى كما روت الامر جريدة البشير قبل اشهر وحتى الآن لم يلبِّ احد دعوتهم

(١ راجع كتاب دوهر المدون بالخرافات المنسوبة الى اليسوعيين: (B. Duhr s. j.: *Jesuiten-Fabeln*, 3e Aufl., pp. 510-512)

ونحن نؤكد لكتبة بلادنا الذين يردّدون ذاك المبدأ كأنهُ من تعاليمنا انَّ الجائزة تنتظرهم حتى الآن ان امكنهم ان يبيّنوا صحّة قولهم

٢ ليس اثر في سلوك اليسوعيين بموجب هذا المبدأ

ولكن هب ان اليسوعيين لم يعلّموا تعليماً منبئاً بتجويز الواسطة لاجل غاية محمودة أفلا يمكن القول بانّهم جروا في اعمالهم بحسب هذا المبدأ فاتّخذوا الوسائط المستقبحة لبلوغ غاية محمودة

نجيب (اوّلاً) مع اهل الشرع انهُ لا يصحّ نسبة الشرّ الى احد الّا بالدليل (nemo malus nisi probetur) فليبيّن خصومنا انَّ اليسوعيين اتّخذوا الوسائل السيّئة لبلوغ مقاصدهم الصالحة وانَّ هذا دأبهم وعادتهم المألوفة . لعمري لو ثبت ذلك لكانوا من أكبر الأئمة يحقّ لافاضل الناس ان يبتعدوا عنهم ابتعادهم عن سفلة القوم واوباشهم

(ثانياً) وترى على خلاف ذلك في كل البلاد امائل القوم يتّخذون اليسوعيين كافتهم ومرشدي ذممهم ومهذّبي اولادهم ومُهَج اكبادهم فاين ذلك من اعتبارهم أياهم كمائنين يتوسّلون بكل الوسائل مهما كانت ذميمة لتحقيق نيّاتهم

(ثالثاً) واذا كانت الغايات القريبة هي نفسها وسائط للغايات البعيدة فمن يضمن لنا ان اليسوعيين لم يقصدوا بتلك الغايات سوءًا على حجّة انّها وسائط للغاية القصوى وعليهِ يصبح اليسوعيّون شرّ الورى عموماً

(رابعاً) وكيف يقوم هذا مع ما يُرى من الآثار الطيّبة لرهبانية يسوع في كل العالم كما يشهد عليها القاصي والداني مباشرةً بالاخبار الرومانيين الذين منحوا الرهبان اليسوعيين نيشاناً ومائتي براءة يشيدون باعمالهم ويخصّونهم بانعامات جزيلة . بل ترى اعداءهم ولو مرغومين اثنوا على مساعيهم المشكورة ولو جمعنا شواهدهم لألّفنا منها مقالة واسعة بينهم فولتير وجان جاك روسو وديدرو

(خامساً) ولو صحّ انَّ اليسوعيين يتصرّفون بموجب هذا المبدأ فكان الاحرى بهم ان يلتجئوا اليهِ لينجّوا نفوسهم من عدّة محن دهمتهم ظلماً فاحتملوها قياماً بالواجب . من ذلك انّهم فضّلوا ان يُنفَوا من فرنسة في عهد لويس الخامس عشر لأنّهم لم يمنحوا الحلّ لسرّيّة الملك المادام دي پمبادور (Mme de Pombadour)

فنقمت عليهم وسعت بطردهم . وكذلك اصابتهم في البرتغال اشدّ النكبات لأنهم لم يريدوا ان يوافقوا المركيز دي بمبال على مناهضة اعدائه الياسين فقُتل بعضهم ونُفي بعضهم وزُجّ كثيرون منهم في السجون المظلمة مدّة سنين طويلة دون ذنب آخر غير امتناعهم عن اتخاذ الوسائط السيئة لنجاة حياتهم وحياة اخوتهم

(وسادساً) وكم يحقّ لليسوعيين بوجه اصحّ ان يثيروا تلك الشكوى على اعدائهم واعداء الكنيسة الكاثوليكية وهم الذين لا يبالون بالوسائط التي يتّخذونها للفوز بآرائهم وربّما جمعوا بين شرّين اي الغايات السيئة والوسائط الذميمة وهذا ما اعتادتهُ خصوصاً الجمعيّات السرّيّة التي تضحّي في سبيل غاياتها الفاسدة كل نفس ونفيس فتنسب اعمالها المستقبحة الى خصومها وفقاً لتعليم زعيمها ڤولتير : « اكذبوا اكذبوا فلا بُدّ ان يبقى اثرٌ من كذبكم »

وان سألتَ : ومتى شاعت تلك التهمة الفظيعة في حقّ اليسوعيين . اجبنا انّ الذي اعلن بها صريحاً هو احد الجنسينيين اي پسكال الكاتب الشهير في كتابه المعروف بالرسائل الاقليميّة (les Provinciales) الذي هو مجموع نصوص موّعة واكاذيب ماقّقة نقلها عن تُهم اهل شيعته لبخس حقوق الرهبانيّة اليسوعيّة الدّ اعداء تلك الشيعة الفاسدة . ولعلّهُ بنى هذا القول على احد اقوال القديس اغناطيوس دي لويولا في رسوم رهبانيّته فغيّر صورتها وجعلها سلاحاً ضدّ الرهبانيّة المذكورة . فان هذا القديس كثيراً ما يردّد في قوانينه وكتاب رياضاته الروحيّة انهُ « يجب اتحاد الوسائط الكافلة بادراك الغاية » او بكلام آخر « تطبيق الوسائط مع الغاية » (media ad finem) يريد بذلك انّ الانسان اذا قصد امراً ما وجعلهُ كفايته لا بُدّ ان يختار لتلك الغاية الوسائط الموافقة لادراكها . وهو مبدأ صحيح في كل الاعمال البشريّة على شرط ان تكون الغاية صالحة لأن الفلاسفة كلهم يقولون انّ من اراد الغاية يجب عليه التوسّل بالوسائط التي تقود اليها وقد جرى قولهم مجرى المثل عند الفرنج (qui veut la fin veut les moyens) فزوّر پسكال وذووهُ هذا الكلام وادّعوا انّ اليسوعيين يقولون انّ الغاية تُنال باي واسطة كانت حسنة او سيئة واخرجوا هذا بالصورة التي فنّدناها . « انّ الغاية تقدّس الوسائط » او « تبرّر الوسائط » وشتّان بين المعنيين .